دائرة معارف القرآن: تقع في ثلاث حلقات وتتألف كل حلقة من عدة مجلدات.

الحلقة الأولى: خصائص السور القرآنية.

إعداد:

السيد جعفر شرف الدين

الحلقة الثانية: اختصاصات المعاجم والفهارس القرآنية.

الحلقة الثالثة: فرائد العلوم والفنون القرآنية.

التفسير بالمأثور في سورة الفاتحة

السيد جعفر شرف الدين

في العيون والمعاني عن الرضا عليه السلام في معنى قوله: بسم الله قال عليه السلام: يعني أسمُ نفسي بسمة من سمات الله وهي العبادة، قيل له: ما السمة؟ قال العلامة.

أقول: وهذا المعنى كالمتولد من المعنى الذي أشرنا إليه في كون الباء للابتداء فإن العبد إذا وسم عبادته باسم الله لزم ذلك أن يسم نفسه التي ينسب العبادة إليها بسمةٍ من سماته.

وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام، وفي العيون وتفسير العياشي عن الرضا عليه السلام أنها أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها.

أقول: وسيجيء معنى الرواية في الكلام على الاسم الأعظم.

وفي العيون عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنها من الفاتحة وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأها ويعدّها آية منها، ويقول فاتحة الكتاب هي السبع المثاني.

أقول: وروي من طرق أهل السنة والجماعة نظير هذا المعنى فعن الدارقطني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ص): إذا قرأتم الحمد فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم، فإنها أمّ القرآن والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها.

وفي «الخصال» عن الصادق عليه السلام قال: ما لهم؟ قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية

في كتاب الله فزعموا أنها بدعة إذا اظهروها.

وعن الباقر عليه السلام: سرقوا أكرم آية في كتاب الله؛ بسم الله الرحمن الرحيم، وينبغي الإتيان به عند افتتاح كل أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه.

أقول: والروايات عن أئمة أهل البيت في هذا المعنى كثيرة، وهي جميعاً تدل على أن البسملة جزء من كل سورة إلا سورة البراءة، وفي روايات أهل السنة والجماعة ما يدل على ذلك.

ففي صحيح مسلم عن أنس قال رسول الله (ص): أنزل عليّ آنفاً سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم.

وعن أبي داود ابن عباس (وقد صحّحوا سندها) قال: إن رسول الله (ص) كان لا يعرف فصل السورة، (وفي رواية انقضاء السورة) حتى ينزل عليه، بسم الله الرحمن الرحيم.

أقول: وروي هذا المعنى من طرق الخاصة عن الباقر عليه السلام.

وفي الكافي والتوحيد والمعاني وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في حديث: والله إلّه كل شيء، الرحمن بجميع خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصة.

وروي عن الصادق عليه السلام: الرحمن اسم خاص بصفة عامة والرحيم اسم عام بصفة خاصة.

أقول: قد ظهر مما مر وجه عموم الرحمن للمؤمن والكافر واختصاص الرحيم بالمؤمن، وأما كون الرحمن اسماً خاصاً بصفة عامة والرحيم اسماً عاماً بصفة خاصة فكأنه يريد به أن الرحمن خاص بالدنيا ويعم الكافر والمؤمن. والرحيم عام للدنيا والآخرة ويخص المؤمنين، وبعبارة أخرى: الرحمن يختص بالإفاضة التكوينية التي يعم المؤمن والكافر، والرحيم يعم التكوين والتشريع الذي بابه باب الهداية والسعادة، ويختص بالمؤمنين لأن الثبات والبقاء يختص بالنعم التي تفاض عليهم والعاقبة للتقوى.

وفي «كشف الغمة» عن الصادق عليه السلام قال: فقُد لأبي عليه السلام بغلة فقال لئن ردها الله عليّ لاحمدنه بمحامد يرضاها فما لبث إن أتي بها بسرجها ولجامها فلما استوى وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء وقال الحمد لله ولم يزد، ثم قال ما تركت ولا أبقيت شيئاً جعلت أنواع المحامد لله عزّ وجلّ، فما من حمد إلا وهو داخل فيها.

قلت: وفي «العيون» عن علي عليه السلام أنه سئل عن تفسيرها فقال: هو أن الله عرف عباده بعض نعمه عليهم جملاً إذ لا يقدرون على معرفة جميعها بالتفصيل لأنها أكثر من أن

تحصي أو تعرف، فقال: قولوا الحمد لله على ما أنعم به علينا.

أقول: يشير عليه السلام إلى ما مر من أن الحمد، من العبد وإنما ذكره الله بالنيابة تأديباً وتعليماً.

في الكافي عن الصادق عليه السلام في معنى العبادة قال: العبادة ثلاثة: قوم عبدوا الله خوفاً، فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة الاجراء، وقوم عبدوا الله عزّ وجلّ حباً، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة.

وفي **نهج البلاغة**: إن قوماً عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار.

وفي العلل والمجالس والخصال، عن الصادق عليه السلام: ان الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عبادة العبيد، وهي رهبة، ولكني أعبده حباً له عز وجل فتلك عبادة الكرام، لقوله عز وجل: ﴿وهم من فزع يومئذٍ آمنون﴾ ولقوله عز وجل: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾، فمن أحب الله عز وجل أحبه، ومن أحبه الله كان من الآمنين، وهذا مقام مكنون لا يمسه إلا المطهرون.

أقول: وقد تبين معنى الروايات بما مر من البيان، وتوصيفهم عليهم السلام عبادة الأحرار تارة بالشكر وتارة بالحب، لكون مرجعهما واحداً، فإن الشكر وضع الشيء المنعم به في محله، والعبادة شكرها أن تكون لله الذي يستحقها لذاته، فيعبد الله لأنه الله، أي لأنه مستجمع لجميع صفات الجمال والجلال بذاته، فهو الجميل بذاته المحبوب لذاته، فليس الحب إلا الميل إلى الجمال والانجذاب نحوه، فقولنا فيه تعالى هو معبود لأنه هو، وهو معبود لأنه جميل محبوب، وهو معبود لأنه منعم مشكور بالعبادة يرجع جميعها إلى معنى واحد.

وروي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: إياك نعبد الآية، يعني: لا نريد منك غيرك ولا نعبدك بالعوض والبدل: كما يعبدك الجاهلون بك المغيبون عنك.

أقول: والرواية تشير إلى ما تقدم، من استلزام معنى العبادة للحضور وللاخلاص الذي ينافي قصد البدل.

وفي «تحف العقول» عن الصادق عليه السلام في حديث: ومن زعم أنه يعبد بالصفة لا بالإدراك فقد أحال على غائب، ومن زعم

أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفة غير الموصوف، ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغر بالكبير، وما قدروا الله حق قدره. الحديث.

وفي «المعاني» عن الصادق عليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾ يعني أرشدنا إلى لزوم الطريق المؤدي إلى محبتك، والمبلغ إلى جنتك، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك.

وفي «المعاني» أيضاً عن علي عليه السلام في الآية، يعني، أدم لنا توفيقك الذي اطعتك به في ماضي أيامنا، حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا.

أقول: والروايتان مختلفتان في الجواب عن شبهة لزوم تحصيل الحاصل من سؤال الهداية للمهدي، فالرواية الأولى ناظرة إلى اختلاف مراتب الهداية مصداقاً والثانية إلى اتحادها مفهوماً.

وفي «المعاني» أيضاً عن علي عليه السلام: الصراط المستقيم في الدنيا ما قصر عن الغلو، وارتفع عن التقصير واستقام، وفي الآخرة طريق المؤمنين إلى الجنة.

وفي المعاني أيضاً عن علي عليه السلام في معنى صراط الذين الآية: أي: قولوا: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، لا بالمال والصحة، فإنهم قد يكونون كفاراً أو فساقاً، قال: وهم الذين قال الله: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً**﴾.

وفي «العيون» عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: لقد سمعت رسول الله (ص) يقول: قال الله عز وجل: قسمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم قال الله جل جلاله بدأ عبدي باسمي وحق علي أن اتمم له أموره، وأبارك له في أحواله، فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال الله جل جلاله: حمدني عبدي، وعلم أن النعم التي له من عندي وأن البلايا التي دفعت عنه بتطولي، أشهدكم أني أضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا، وإذا قال الرحمن الرحيم، قال الله جلّ جلاله: شهد لي عبدي أني الرحمن الرحيم اشهدكم لأوفرن من رحمتي حظه ولأجزلن من عطائي نصيبه، فإذا قال: مالك يوم الدين قال الله تعالى: أشهدكم، كما اعترف بأني أنا المالك يوم الدين، لأسهلن يوم الحساب حسابه، ولأتقبلن حسناته ولأتجاوزن

عن سيئاته، فإذا قال: إياك نعبد، قال الله عز وجل: صدق عبدي، إياي يعبد اشهدكم لأثيبنّه على عبادته ثواباً يغبطه كل من خالفه في عبادته لي، فإذا قال: وإياك نستعين قال الله تعالى: بي استعان عبدي وإليّ التجأ، أشهدكم لأعيننّه على أمره، ولأغيثنّه في شدائده ولآخذنّ بيده يوم نوائبه، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة، قال الله عز وجل: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل. وقد استجبت لعبدي وأعطيته ما أمل وآمنته مما منه وجل.

أقول: وروى قريباً منه «الصدوق» في «العلل» عن الرضا عليه السلام، والرواية كما ترى تفسر سورة الفاتحة في الصلاة فهي تؤيد ما مر مراراً أن السورة كلام له سبحانه بالنيابة عن عبده في ما يذكره في مقام العبادة وإظهار العبودية من الثناء لربه وإظهار عبادته، فهي سورة موضوعة للعبادة، وليس في القرآن سورة تناظرها في شأنها وأعني بذلك:

أولاً: أن السورة بتمامها كلام تكلم به الله سبحانه في مقام النيابة عن عبده فيما يقوله إذا وجه وجهه إلى مقام الربوبية ونصب نفسه في مقام العبودية.

وثانياً: إنها مقسمة قسمين، فنصف منها لله ونصف منها للعبد.

وثالثاً: أنها مشتملة على جميع المعارف القرآنية على ايجازها واختصارها فإن القرآن على سعته العجيبة في معارفه الأصلية وما يتفرع عنها من الفروع من اخلاق وأحكام في العبادات والمعاملات والسياسات والاجتماعيات ووعد ووعيد وقصص وعبر، يرجع جمل بياناتها إلى التوحيد والنبوة والمعاد وفروعاتها، وإلى هداية العباد إلى ما يصلح به أولاهم وعقباهم، وهذه السورة كما هو واضح تشتمل عليها جميعها في أوجز لفظ وأوضح معنى.

وعليك أن تقيس ما يتجلى لك من جمال هذه السورة التي وضعها الله سبحانه في صلاة المسلمين بما يضعه النصارى في صلاتهم من الكلام الموجود في انجيل متى: (٦ - ٩ - ١٣) وهو ما نذكره بلفظه العربي، «أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا، أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا، ولا تدخلنا في تجربة ولكن نجّنا من الشرير آمين».

تأمل في المعاني التي تفيدها ألفاظ هذه الجمل بعنوان أنها معارف سماوية، وما يشتمل عليه من الأدب العبودي، إنها تذكر أولاً: أن أباهم (وهو الله تقدس اسمه) في السموات!! ثم تدعو في حق الأب بتقدس اسمه وإتيان

ملكوته ونفوذ مشيئته في الأرض كما هي نافذة في السماء، ولكن من الذي يستجيب هذا الدعاء الذي هو بشعارات الأحزاب السياسية أشبه؟ ثم نسأل الله إعطاء خبز اليوم ومقابلة المغفرة بالمغفرة وجعل الإغماض عن الحق في مقابل الإغماض، وماذا هو حقهم لو لم يجعل الله لهم حقاً؟ وتسأله أن لا يمتحنهم بل ينجيهم من الشرير، ومن المحال ذلك، فالدار دار الامتحان والاستكمال. وما معنى النجاة لولا الابتلاء والامتحان؟ ثم اعجب مما ذكره بعض المستشرقين[1] من علماء الغرب وتبعه بعض من المنتحلين: أن الإسلام لا يربو على غيره في المعارف، فإن جميع شرائع الله تدعو إلى التوحيد وتصفية النفوس بالخُلق الفاضل والعمل الصالح، وإنما تتفاضل الأديان في عراقة ثمراتها الاجتماعية!!

وفي «الفقيه» وتفسير العيّاشي عن الصادق عليه السلام قال: الصراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السلام.

وفي «المعاني» عن الصادق عليه السلام قال: هي الطريق إلى معرفة الله، وهما صراطان صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأما الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمُه في الآخرة فتردى في نار جهنم.

وفي المعاني أيضاً عن «السجاد» عليه السلام قال: ليس بين الله وبين حُجته حجابٌ، ولا لله دون حجته سترٌ، نحن أبواب الله ونحن الصراط المستقيم ونحن عيبة علمه، ونحن تراجمة وحيه ونحن أركان توحيده ونحن موضع سره.

وعن ابن شهر اشوب عن تفسير وكيع بن الجراح عن الثوري عن السدي، عن اسباط ومجاهد، عن ابن عباس في قوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم، قال: قولوا معاشر العباد! ارشدنا إلى حب محمد (ص) وأهل بيته عليهم السلام.

أقول: وفي هذه المعاني روايات أخر، وهذه الأخبار من قبيل الجري، وعد المصداق للآية، واعلم أن الجري (وكثيراً ما نستعمله في هذا الكتاب) اصطلاحٌ مأخوذ من قول أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ففي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية؛ ما في القرآن آيةٌ إلا ولها ظهر وبطن وما فيها حرفٌ إلا وله حدٌّ، ولكل حدٍّ

(١) القسيس الفاضل غوستاف لوبون في «تاريخ التمدن الإسلامي».

مطلع؛ ما يعني بقوله: ظهر وبطن؟ قال: ظهره تنزيله وبطنه تأويله، منه ما مضى ومنه ما لم يكن بَعدُ، يجري كما يجري الشمس والقمر، كلما جاء منه شيء وقع. الحديث.

وفي هذا المعنى روايات أخر، وهذه سليقة أئمة أهل البيت فإنهم عليهم السلام يطبقون الآية في القرآن على ما يقبل أن ينطبق عليه من الموارد وإن كان خارجاً عن مورد النزول، والاعتبار يساعده، فإن القرآن نزل هدى للعالمين يهديهم إلى واجب الاعتقاد وواجب الخلق وواجب العمل، وما بيّنه من المعارف النظرية حقائق لا تختص بحال دون حال ولا زمان دون زمان، وما ذكره من فضيلة أو رذيلة أو شرعه من حكم عملي لا يتقيد بفرد دون فرد ولا عصر دون عصر لعموم التشريع.

وما ورد في شأن النزول (وهو الأمر أو الحادثة التي تعقب نزول آية أو آيات في شخص أو واقعة) لا يوجب قصر الحكم على الواقعة لينقضي الحكم بانقضائها ويموت بموتها لأن البيان عام والتعليل مطلقٌ، فإن المدح النازل في حق أفراد من المؤمنين أو الذم النازل في حق آخرين معللاً بوجود صفات فيهم، لا يمكن قصرهما على شخص مورد النزول مع وجود عين تلك الصفات في قوم آخر بعدهم وهكذا، والقرآن أيضاً يدل عليه، قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه﴾ [سورة المائدة، الآية/ ١٦]، وقال: ﴿وإنه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ [سورة فصلت، الآية/ ٤١، ٤٢]. وقال تعالى: ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [سورة الحجر، الآية/ ٩].

والروايات في تطبيق الآيات القرآنية عليهم أو على أعدائهم أعني: روايات الجري، كثيرة في الأبواب المختلفة، وربما تبلغ المئين، ونحن بعد هذا التنبيه العام نترك إيراد أكثرها في الأبحاث الروائية لخروجها عن الغرض في الكتاب، إلا ما تعلق بها غرض في البحث(٢).

(٢) سماحة السيد محمد حسين الطباطبائي: «الميزان في تفسير القرآن» مؤسسة الأعلمي للمطبوعات في بيروت ١٩٨٣.

كتابخانه فرهنگ و معارف قرآن
ثبت
موضوع
المعارج ٦/٩٤